العرب
الأحد 2020/01/12
السنة 42 العدد 11584

من الكهنوت السياسي إلى دولة القانون

الانتفاضات العربية قامت في جوهرها من أجل المواطنة والعدالة الاجتماعية

لا تراجع في مطالب الجماهير

الأحـزاب التي تولـت الحكم في البلدان العربية عقب مرحلة الاسـتقلالات الوطنية كرسـت السـلطوية وهيمنة الأقليات لتتحول معها الفئات الحاكمة إلى ما يشـبه الكهنوت السياسـي، وتمثل في هذا الإطار سـوريا نموذجا لتلك الوضعية. إزاء الوضع العربي المتردي هبت رياح التغيير على الجسـد العربي بوجع استبداد مزمن تتداعى له سائر البلدان، لكنها موجات غضب شـعبي لم يكن على أجندتها تسـليم الأوطان لجماعات الإسلام السياسي بمختلـف تلويناتها ورياتهـا بل كان الهدف من كل الثـورات تحقيق دولة المواطنة والعدالة الاجتماعية.

مرح البقاعي
كاتبة سورية أميركية

"كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".. صدق رسول الله العظيم، وصدقت رؤيته، بل سابقت العصور، لتحطّ اليوم في ساحات التحرير العربية، حيث يتداعى الجسد العربي بوجع استبداد مزمن نال من قواه وقدراته عشرات السنين، وتسهر له العواصم العربية بالتعب والحمى.

قلب الألم كان ولم يزل يئن بنزيف جسد سوريا الكليم، ذاك البلد الذي تناوبت عليه الحضارات الإنسانية وولدت على أرضه أبجديات اللغة والموسيقى، ما انفكّت تتنازعه المخالب والأنياب الشرهة على امتداد عقود عجاف لم يشهد فيها براء من الاستعمار الخارجي إلا لفترات وجيزة إثر الاستقلال الأول، حتى وقع في شرك احتلالات داخلية هي الأبشع في العصر الحديث.

منذ استيلاء حزب البعث على السلطة في دمشق، بقوة السلاح وسلطة الطائفة، والبلد يمور تحت وطأة أوجاعه المتنقلة. فسلطة (الحزب/القائد/الواحد) المطلقة جلبت الطغاة الطائفيين إلى كرسي الحكم على حساب إقصاء البرجوازية الصغيرة المدنية التي كانت قد أسست في حينها نواة لحركات التحرر في سوريا والمشرق العربي؛ من أنضر صورها كانت "الكتلة الوطنية السورية" التي التأم منها عقد رجالات سوريا وأخيارها من أصحاب الفكر التقدمي والمال النظيف والأيادي البيض على البلد وأولاده. وليس عهد الجمهورية السورية الأولى ابتداء من العام 1932 حتى وصول حزب البعث إلى السلطة في العام 1963 ببعيد؛ وما إرث قادتها الوطنيين من أمثال شكري القوتلي وسعدالله الجابري وهاشم الأتاسي وفارس الخوري، بزائل.

تجددت آلام المخاض السوري في ربيع العام 2011، وكانت موجة الحريات العارمة تجتاح الشمال الأفريقي لتصل إلى قلب الشرق دمشق. بدأ الخروج الكبير من درعا ثم دق أبواب دمشق وتنقّل سريعا إلى المدن الكبرى السورية كافة مع استثناءات هنا وهناك اختارت الولاء للسلطة أو الحياد أو التريّث. ثمن حرية السوريين كان مريرا: تدمير المدن على رؤوس أصحابها، ونزوح وهجرة الملايين بما يقارب ثلث الشعب السوري، وعشرات الآلاف من المعتقلين والمغيّبين قسرا، والأوجع من هذا كله فقدان مليون شهيد ونيف وضياع الأرض نهبا بين أطماع الدول الصديقة والعدوة في آن.

اليوم ونحن نطوي العام التاسع من عمر الثورة السورية تتداعى المدن الشقيقة بالسهر والحمى لآلام دمشق. فها هي بيروت تنشقّ ساحاتها عن غضب كامن في صدور من اكتوى بالطائفية والفساد والفوضى فكان "حكم الأزعر" هو المستهدف من ثورة الساحات لإنقاذ البلد من انهيار مجتمعي واقتصادي ومؤسساتي قادم. أما أبناء بلاد النهرين فلهم الحصة الأكبر من تلك التداعيات التي تنتفض وينتفض عبرها الجسد العربي؛ مئات الشهداء وآلاف الجرحى، بينما المسدسات المجهزة بكاتم الصوت تتحرك لتغتال كل من ارتفع صوته مطالبا بخروج إيران من الحياة السياسية العراقية وكف يد أزلامها وميليشياتها عن مفاصل الحكم في بغداد. وقد طالت التهديدات موقع رئيس الجمهورية حين رفض الرئيس، برهم صالح، ترشيح اسم دفعه الموالون لحكام ملالي طهران إلى مكتبه لشغل منصب رئيس الوزراء، وغادر صالح، بعد التلويح بالاستقالة، قصر السلام في بغداد إلى مسقط رأسه السليمانية في إقليم كردستان العراق. هذا الحراك السلمي الشعبي الذي بادرته الجماعات الطائفية المسلحة بالرصاص الحي هو الأول من نوعه منذ سقوط نظام بعث صدام الحسين في العام 2003 حتى تاريخ كتابة هذه السطور.

> موجات الغضب الشعبي تلك، مجتمعة ومتواقتة، تفصح عن جوهر الخلل الذي اعترى الحياة السياسية في سوريا والعراق ولبنان واليمن ويطال اليوم الشمال الأفريقي ابتداء بليبيا، إنه الإسلام السياسي متمثلا بجناحيه التكفيري صاحب الرايات السود والطائفي صاحب العمامات

موجات الغضب الشعبي تلك، مجتمعة ومتواقتة، تفصح عن جوهر الخلل الذي اعترى الحياة السياسية في سوريا والعراق ولبنان واليمن ويطال اليوم الشمال الأفريقي ابتداء بليبيا، إنه الإسلام السياسي متمثلا بجناحيه التكفيري صاحب الرايات السود والطائفي صاحب العمامات التي تحمل ظلام الأسود نفسه من طهران إلى العالم!

يلتقي التطرف الشيعي ونظيره التكفيري عند مفرق واحد هو محاولتهما -كلّ على طريقته- القضاء على إمكانية نشوء أنظمة حكم ديمقراطية بالمعنى العميق للمصطلح تقوم على حكم القانون المدني وليس الكهنوت السياسي الذي يضع الطائفة فوق المواطنة، وهنا تكمن ضربة المقتل.

من الخطأ الفادح تصوير مشهد الانتفاضات الشعبية في العواصم العربية على أنها مواجهة اللاديني ضد الديني، أو بالإسقاط السياسي للعبارة مواجهة العلماني ضد الإسلامي؛ إنها في جوهرها ثورة المواطنة والعدالة البشرية على سطوة الكهنوت السياسي القادم من وراء الحدود. وخير مثال هو ما يجري في العراق الآن من تأييد المرجعية الشيعية ووقوفها إلى جانب المتظاهرين الذين خرجوا في بغداد وفي المحافظات الوسطى والجنوبية ومن عمق الحاضنة الشيعية في النجف وكربلاء والبصرة هاتفين "العراق حرة حرة وإيران برا برا".

منذ العام 2003 فشل رؤساء الوزراء الذين توالوا على الحكم في العراق في بناء دولة القانون المنشودة ما بعد حكم البعث؛ بل ما حدث للأسف أن طائفة سياسية جديدة تكالبت على السلطة. وإثر فشل الدول الكبرى، وفي مقدمتها الولايات المتحدة، في مساعدة العراقيين على تأسيس دولتهم الجديدة المعاصرة، جاءت انتفاضة 2019 مدعومة بالمرجعية الشيعية العراقية والوطنية لتؤكد على وحدة شعب العراق بطوائفه كافة ضد الكهنوت الفارسي الجديد.

فصل المقال يرفعه هتاف الساحات العالي حيث لا تراجع في مطالبها الجماهيرية هذه المرة بعد أن بلغ السيل الزبى. المواطن المطحون تحت أوزار الفقر والإكراه والعنف لن يقبل بالمساومات بعد اليوم. وإذا كان آخر الطب هو الكيّ فلا بد من غسل الجراح بماء النار خلاصا من ذاك الداء المستعصي الذي يريد استجرار المسلمين بمذاهبهم كافة إلى المحرقة العظمى حتى ينفرد بعرش الجماجم للإمبراطورية الفارسية المفقودة.

أردوغان الممتع

علي الصراف
كاتب عراقي

الرئيس التركي رجب طيب أردوغان مزعج في الكثير من الأحيان، لحلفائه ومعارضيه ولنفسه، إلا أنه ممتع أحيانا أخرى.

أحد أمثلة الإمتاع القليلة أنه عندما أراد انتقاد المعارضة التركية لرفضها إرسال قوات عسكرية إلى ليبيا، قال "هؤلاء لا يدركون أنّ مؤسس الجمهورية التركية مصطفى كمال أتاتورك ذهب على رأس جنوده إلى طرابلس الغرب، وأصيب هناك في عينه".

ولا شك أنه لو ذهب على رأس جنوده إلى طرابلس فإنه سيعود مصابا في العينين معا. وهو، على أي حال، لا يستخدمهما من الأساس. فالواقع الذي لا يراه أردوغان، فاضح له ولسياساته التوسعية بما يكفي لأن يراها أعمى البصر والبصيرة.

ولكن منذ أن اندلعت الأزمة الاقتصادية في تركيا قبل عامين، والرئيس التركي يتخبط في كل مكان، حتى أنه لا يكاد يمسك خيطا إلا ويفلت منه. على سبيل المثال، صادق على قرار بتوسيع حدود تركيا البحرية، من دون أن يلاحظ أن هناك جيرانا مثل اليونان ومصر وقبرص، سيتضررون، ويحبطون خرائطه الوهمية، لكي يتم إجباره في النهاية على الإقرار بأن الواقع واقع، حتى وإن كان لا يراه.

وهو ذهب أبعد بالتوقيع على اتفاقيات مع سلطتين وهميتين هما "جمهورية قبرص التركية" التي لا يعترف بها أحد، و"حكومة الوفاق" في طرابلس التي لا يعترف بها الواقع. على الأقل لأنها لا تحكم من ليبيا إلا جيبا ضيقا لن يمكنه أن يحمي عيني أردوغان لو شاء أن يذهب بهما وهو على رأس جيشه.

وذهبت الرغبة في الإزعاج والإمتاع إلى أنه استغل زيارة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بالإعلان عن وقف إطلاق النار في ليبيا، فلما وصل الخبر إلى ليبيا زاد إطلاق النار نارا.

ما لم يلاحظه أردوغان هو أن دعوته إلى وقف إطلاق النار، مفضوحة، ليس لأنها تقصد حماية المرتزقة الذين أرسلهم إلى ليبيا، بل لأن "الجنرال التركي" الذي يقودهم هناك إما أن يعود بعين واحدة أو في نعش.

ثم إن الليبيين قالوا، لأنفسهم على الأقل، ومنذ متى نتلقى الأوامر أو المقترحات من أردوغان، وهو الذي جعل من نفسه خصما من الأساس؟

مقترح وقف إطلاق النار لا يصدر من طرف يشارك في القتال، مثل ما وضعت تركيا نفسها فيه، إلا في دلالة على الضعف.

وسلطة الإخوان التي يحاول أردوغان أن يحميها من التشرذم والسقوط، لن يمكنها أن تصمد حتى لو أنفق عليها كل ما لدى قطر من مال. إنما لأسباب يستطيع أن يراها كل من لم يفقد بصره.

أولها أن الغالبية العظمى من الليبيين لا يريدونها، ويعرفون أنها مجرد سلطة عصابات وميليشيات غير جديرة بالحكم. وإذا حكمت، كما أتيح لها لعدة سنوات، فإنها لن تحكم إلا بالفساد وأعمال النهب التي أتاحت لها أن تستنزف كل ما كان لدى ليبيا من عائدات وثروات. وهي لم تبن مدرسة ولا مستشفى، ولا افتتحت شارعا، بل التهمت كل ما صادفته في طريقها، وكأنها جراد.

وثانيها أن العالم لم يعترف بحكومة السراج كما انتهت إليه. العالم إنما اعترف بحكومة توافق على أساس وثيقة الصخيرات إلا أن سلطة الميليشيات سرعان ما نقضتها وانقلبت عليها، ولم يبق من الاعتراف الدولي بهذه الحكومة المزيفة إلا الشكل الذي ظل معلقا في الفراغ، بعد أن لم يبق من التوافق إلا "وفاق" الإخوان مع الجماعات الإرهابية المماثلة لهم.

وثالثها أن محيط ليبيا الإقليمي لا يستطيع أن يستوعب مجرد فكرة وجود حكومة ميليشيات في الجوار. العالم كله، بالأحرى، إنما يريد حكومة تتصرف كحكومة تمثل كل الليبيين، ويمتثلون لها، لا حكومة تهيمن عليها مجموعات مسلحة، أو ترتبط بمشاريع تطرف وهي تحمل السلاح.

> هناك شيء واحد يراه أردوغان بوضوح حتى وهو يتخبط بين الأوهام والأحلام. وهو أن هزيمته وهزيمة مشروعه الإخواني هي الفصل التالي في تاريخ تركيا المعاصر

ورابعها أن كل مساعي الحوار لم تفلح في السابق من دون أردوغان، فكيف يمكنها أن تفلح بوجوده، وهو يحلم أن يذهب على رأس جيشه إلى طرابلس لكي يفقد عينه؟

ولكن يجب الاعتراف بأن هناك شيئا واحدا يراه أردوغان بوضوح حتى وهو يتخبط بين الأوهام والأحلام. وهو أن هزيمته وهزيمة مشروعه الإخواني هي الفصل التالي في تاريخ تركيا المعاصر.

إنه يرى حزبه يتشرذم. ويرى أن الكيل قد فاض بالأتراك حتى ليتمنون أن تجري الانتخابات الرئاسية في أقرب وقت للخلاص من عهده. ويرى أن الأزمة الاقتصادية ما تزال قائمة، وأن معالجاته زادت الطين بلة، لأنها أبقت جمر التضخم والديون يتأجج تحت الرماد. ويرى أنه إذ يهرب من أزماته الداخلية باختراع أدوار ونزاعات في الخارج، فإنه لا بد أن يعود ليرى أن الواقع واقع، في نهاية المطاف.

الأعمال التي يقوم بها أردوغان تبدو هستيرية، بدرجة لم يألفها أحد في تركيا الحديثة، ومن بينها حملات الاعتقال والطرد من الوظيفة التي طالت مئات الآلاف من العسكريين والصحافيين والقضاة والموظفين الحكوميين. وهي تنعكس في علاقات متوترة حتى مع أقرب حلفاء تركيا. إلا أنه يظل ممتعا في بعض الأحيان، بمحاولاته إدارة الفشل بفشل أشد

يهرب من أزماته الداخلية باختراع نزاعات في الخارج